

الزهراء والحسن

السيدة العظيمة فاطمة الزهراء التي لم تتجاوز أواسط العقد الثاني من عمرها إن نسبت فإلى أسمى عنصر وإن انحدرت فمن أظهر صلب ، تعيش في أكرم بيت بعيد عن الأرجاس تشملها عناية رجل يهبها من وقته ما يكفل تربيتها كما يريد لها لا كما تريد البيئة الضالة ، إنها قرعة عين الرسول صلى الله عليه وسلم وبضعته تتطلع إلى ما يجتاح الجزيرة بحذر وتلاحظ ما يدور حول رسالة أبيها وما يعترضها من مصاعب ييقظة ، فترى تمرد المتمردين وتعنت المتعنتين ثم تختزن ذلك كله في حشئ متأثر يتسع للإحساس ، على حين تكون نفسها ثملة بنشوة الدين الجديد أو متألمة لما يلقاه حماؤه بسبيله مسلحة إلى الله ، تجتاز هي هذه المراحل فتترسب آثارها في أعماقها وتستقر متبلورة في حشاها الذي يحتفظ بالحسن جنيئاً . . فتحمل في قرارة نفسها توأمين اثنين : الجنين والأحاسيس اللذين يتفاعلان بحكم الطبيعة وينصهران في بوتقة واحدة ، فيتأثر الجنين كما تتأثر الزجاجاة في آلة التصوير ، وينمو منكشاً على نفسه إلى أن يخرج إلى هذه الدنيا بعد وقعة بدر ، وفي نفسه كل ما في نفس أمه الجائشة لما يلقاه أبوها وبعلمها والأنصار من ألوان التعنت وويلات الحرب الدائمة ، فهو إذن يفعل بحكم طفولته ومرونة عقله ولين طباعه بصورة مستمرة .

فقد كان يكتنف حياة الزهراء التأمل العميق لأنها في تماس دائم مع حوادث تغير توجيهها من اللامبالاة والبشر إلى التفكير والكمد ، ومن الغبطة والانشراح إلى التبتل والتسليم ، فتضع وليدها على هذا الشكل وفي هذا الجو فإذا هو لا يقل عنها اتزاناً لما مزج تكوينه من حياة أمه ، فجاء مؤمناً وادعاً طلقاً قلقلاً تتردد حالاته بين طرفي هذه الأضداد وفي مداها دون أن يتجاوز أحدها .

وتبدأ بغرس التعاليم في نفسه لتجعلها صافية ولتصرفه بكليته إلى السماء ، فينشأ مجبولاً على طبائعها فضلاً عما أوتيها من شبه بها في الخلق ، لأنها - كما روى - صورة عن النبي ناطقة القسمات والملامح فيبدو مفطوراً على ما نسجته أمه وظروفه ومحيطه في نفسه ، فقد أخذت الأم بتلاييه - ولم تفتر عن رعايته وتوجيهه توجيهاً دينياً خلقياً ، بل أعطته جل وقها - وهو الولد الأول - وعملت على ترقية عقله وتقوية جميع جهاته المعنوية والفكرية (١)

ومن المعروف أن التربية الاجتماعية الحقة تبدأ في عهد الأمومة حيث يمارس الولد المحبة والطاعة والمحافظة على الواجبات والحقوق ، ويفهم تفاوت الدرجات بين أفراد الجنس ويغتذى بالمبادئ الأولية للعقيدة ، لذا كانت الزهراء تغني بولدها كثيراً لأنها تخاف عليه من مستقبل جائر يصفه جده - وجده لا ينطق عن الهوى ، وكانت تتعلق به وبأخيه إلى حد تضطرب معه إذا فارقاها أو انصرفا عن البيت إلى غير جدهما أو أيهما ، فهي تلازمهما لتنشئ فيهما المعرفة والآداب ولتحليهما بالعادات الحسنة .

(١) الحسن بن علي للأستاذ كامل سليمان .

وكانت وفاة الزهراء فاجعة ثقيلة على الحسن والحسين ، لأن عهدهما معها كان فترة من الزمن قصيرة ولكنها بالرغم من قصر المدة تمكنت أن تجعل الحسن كما جعلت أخاه طفلاً مهذباً متمرساً بفكرة الله والدين ، كيف لا وقد ربيها ونشأ في ظل رجلين وامرأة هم أعظم من أظلت السماء . يقول الحسن في إحدى المناسبات (رأيت أُمى فاطمة في محرابها راكعة تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء فقلت لها يا أماه ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك ؟)

فقالت : يا بني - الجار ثم الدار - فعلى مثل هذا المشهد كانت تفتح عينها الطفل للنور .

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزهراء مرة فقالت له : يا أبا إن لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً وإن الحسن والحسين قد اضطربا على من شدة الجوع ثم رقدا كأنهما فرخان ، فأيقظهما النبي صلى الله عليه وسلم وأجلسهما على فخذه وجعل أمهما بين يديه وعلياً بجانبهما واعتنقهم جميعاً ورفع رأسه نحو السماء وقال : (هؤلاء أهل بيتي - اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . .) فطابت النفوس لهذا الدعاء وأحست ببرده وسلامه . وانحدرت دموع التسليم على الوجوه النضيرة - ولامست بركة الجد الولدين فأحسا بلطف خني بروض نفسيهما وبروح قلوبهما . فنظرا إلى ثلاثة من حولهما قد عمر قلوبهم الإيمان فانطلق من وجوههم نور شكل هالة متألثة فارتعشا للمنظر المدهش واهترا له - ثم قرأ وسكنا - وخيمت عليهم جميعاً الرحمة فوجموا

وجوم التهيّب والملح من رب عظيم يخاطبه نبيّ كريم ، ونظر الحسن بعين بصيرته فرأى نفوساً نقية من كل شرك مطهرة من كل دنس ، ففرق كما فرقت وهدأ كما هدأت وأسلم وباع جده وعاهد الله على ذلك في تلك الخلوة الرائعة .

وراح هذا المشهد مع من راح - وبقي الحسن يميزه من جميع مفارقاته لأنه وإن فارق الجد والأم وهو في الثامنة من عمره قد كان في مرتبة من التعقل والتفهم لا يشاركه فيها كثيرون من أبناء هذه السن إذ اكتملت فيه جميع عناصر الاستعداد الصحيح ومقومات الفكر الراجح .

خرج الحسن مرة وعاد فوجد أمه قد فارقت الحياة فوقع عليها يقبلها ويبكي وشيع أنبل وأشرف أم وعاد يتيماً من جده العظيم وأمه محروماً إلا من رحمة الله وأبيه - رجع ليستظل ببيت ليس فيه جد رحيم ولا أم رءوم وليتطوى على نفسه ، ولكن أباه لم يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً بل انتشله من ذل المصيبة واليتم وجعله في كنف وارف وظل ظليل .